الأبعاد الإنسانية لخطاب الرسول ﷺ في حجة الوداع

المساواة في القيم الإنسانية



الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمُتقين، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمة للعالمين سيِّدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد،،،

أ.د. نظير محمد عياد

فإن دراسة السيرة النبوية –على صاحبها أفضل الصَّلاة وأتم التسليم- تحتاج إلى منهجية سليمة، ورؤية ثاقبة يتأتى معها تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة، التي سعتْ بعضُ الاتجاهات المتطرفة للعمل على بسطها وترسيخها في الميادين العلمية والفكرية والثقافية، من خلال تناولٍ غير صحيح يُجافي الحقيقة ويُناقض الواقع، ويؤدي بشهادة الواقع إلى الغلو والتطرف، ويتعارض مع مقاصد الدين، الذي هو في حقيقته وضع إلهي شرعه الله –تعالى- على لسان أنبيائه ورسله بُغية تحقيق الصلاح للبشر في الحال، وفلاحهم في المآل.

ومِن بين هذه المفاهيم المغلوطة التي تحتاج إلى توضيح وبيان: حقيقة المساواة بين الناس باعتبار ما بينهم من الأخوة الإنسانية؛ وقد كان من بين القضايا التي تتناولها خطبة الوداع هذا الموضوع، من خلال التأكيد على وحدة الأصل الإنساني الذي ينتمي إليه الناس، ومن ثم فإن الناس جميعًا متساوون لا يفرق بينهم سواد أو بياض، ولا يفاوت بينهم نسب شرقي أو غربي، أفريقي أو أوروبي.

وبهذه النظرة الراقية لا تجد مكانًا في شريعة الإسلام ولا تطبيقاته للنزاعات العنصرية، ولا

للنظرات الاستعلائية، ولا للنعرات القومية؛ فهذا كله لا أساس له؛ ولهذا جاءت هذه الوصية التي أمر بها النبي ﷺ ونبّه عليها فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»[1].

ففي هذه العبارة الموجزة نهيٌ تامٌّ عن هذه العصبية القبلية وما يتفرع عنها من تنابز وتباغض وتفاخر، فالناس جميعًا لآدم، ولهذا أعلنها رسول الله ﷺ في هذا الموقف، وأمام هذه الجموع الحاشدة التي جاءت من كل حدب وصوب، ومنهم الأبيض والأسود، العربي والأعجمي، وكلهم يسمع هذا الإعلان تصحيحًا للأفهام وكشفًا للأمور على حقيقتها، وإظهارًا لما ينبغي أن يكون أساسًا للتعامل بين بني الإنسان، وذلك كله حتى لا يكون للناس حجة في تعامل بعضهم مع بعض.

لقد قرَّر النبيُّ ﷺ -من خلال هذه الجملة- أهمية وضرورة المساواة بين الناس، دون التفريق بينهم على أي أساس، سواء في الجنس أو اللون أو العِرق أو اللغة أو الدين أو المكانة الاجتماعية، فالكل في ميزان الإسلام سواء، لا تفرقة ولا تمايز ولا تفاضل بينهم إلا بمعيارٍ واحدٍ وهو التقوى.

(١) مسند أحمد، برقم: (٢٣٤٨٩).

وهذا المعيار جاء منصوصًا عليه في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

فالتقوى أساسٌ للفلاح وسبيل للنجاح، وفي ذات الوقت هي أداة التفاضل بين الناس عند الله تعالى، وما سواها لا قيمة له ولا وزن؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١-١٠٣).

إن الأخوة مبنية على إنسانية جامعة، وليست أخوة خاصة بعرق معين أو نَسب معين أو عنصر معين، أو قبيلة، أو طائفة، أو جماعة، أو دولة، إنها المساواة التامة والأخوة الكاملة التي تساوي في الحقوق والواجبات.

والمتأمل لهذا الإعلان النبوي يرى فيه دعامتين مهمتين: يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في كل زمان ومكان، وهما وحدة الربوبية والوحدة البشرية، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين، مرة وهي الأساس؛ لأن الرب واحد، ومرة أخرى؛ لأن الأب واحد.. إنها كلمات خالدة جرت على لسان النبي ﷺ

في حجة الوداع وحينما قام النبي ﷺ بهذا الإعلان التاريخي العظيم، لم يكن العالم في وضع طبيعي هادئ يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة، ويطيقها»(٢).

فعن زيد بن أرقم قال: كان نبي الله ﷺ يقول في دُبر صلاته: «اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، قالها إبراهيم مرتين، ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك، ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصًا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله الأكبر الأكبر، الله نور السماوات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل، الله الأكبر الأكبر»(٣).

وإذًا فهذه شهادات ثلاث: شهادة بالألوهية، وبالنبوة، وبالأخوة الإنسانية، وهي ذاتها شهادة على أن الإسلام إذا كان هو دين التوحيد الخالص فهو بالقدر نفسه دين الإنسانية كلها ودين المساواة بين الناس، ثم هو دين عصمة الدماء والأموال والأعراض، ودين مقاصد أخرى خُلُقية، أوْجزها نبي هذا الدين في خطبة الوداع التي خاطب فيها الإنسانية كلها من وراء حشد المسلمين بلغ مئة ألف وأكثر»(٤).

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن «الأخوة الدينية أخص من الأخوة الإنسانية وأضيق دائرة وأكثر حقوقًا وواجبات، لكنها لا تقتضي إبطال الأخوة الإنسانية في دائرتها الواسعة العامة التي تتسع للجميع، وليس معنى الأخوة الإنسانية أن تكون أمة واحدة فتذوب الفوارق وتزول المميزات، ونتفق في المبادئ والمعتقدات والمقاصد، بل ذلك مخالف للسنة الكونية والحكمة الإلهية، قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ (هود: ١٨، ١٩).

فذلك التنوع مصدرُ ثراءٍ للبشرية، وليس مصدر صدامٍ لها، ولا ينفي معنى الأخوة الإنسانية.

ولكن معنى الأخوة الإنسانية أن نتعايش في سلام، وأن نلتزم بقواعد العدل والإحسان، وأن نتعاون في المشترك؛ كالسلم والعدل والحرية والتنمية، ونتسامح في المختلف فيه، فلا يبغي بعضنا على بعض، ولا يتطاول عليه،

(٢) ينظر: مقالات في السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، صـ٩٥، ٩٦.

(٣) مسند أحمد، رقم: (١٩٢٩٤).

(٤) القول الطيب، ١/ ٣٦٥.

ولا يستقوي عليه بما أوتي من قوة مادية»[٥].

ومما سبق يتضح لنا أن الإسلام دين التسامح والتعايش وقبول الآخر دون النظر إلى اختلاف ثقافته أو عقيدته أو جنسه ولونه، وأن النبي الكريم ﷺ قد أعلن للناس جميعًا مبادئ الإخاء الإنساني في حجة الوداع، وأقامها على حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، وعدم التمييز، ونبذ العنصرية، وغيرها من المبادئ التي تحتاج إليها الإنسانية الآن كحاجتها للطعام والشراب والهواء، إن لم يكن أكثر؛ خصوصًا مع غياب الأساس الذي يقوم عليه التمايز بين الناس، وتنامي النعرات القومية، والصراعات المذهبية، والأحكام الجائرة، والموازين المقلوبة، بجانب الأفهام المغلوطة، والقراءة الناقصة لنصوص الدين، وهذه كلها أمور أفقدت الأخوة معناها، وأيقظت نار الحروب بين الإنسان وأخيه الإنسان.

إن البشرية جمعاء -والمسلمون بشكل خاص- في أَمَسِّ الحاجة إلى الأخذ بهذا المبدأ الذي قرره الإسلام منذ أمدٍ طويل، قصد من خلاله قائله تذكير الإنسان بحقوقهٍ وواجباته، وتنبيهه إلى أصله الذي يدفعه إلى عدم البغي والعدوان في الاستعلاء، وفي ذات الوقت هو بيانٌ لمقياس التمايز والتنافر بين بني الإنسان باعتباره أساسًا يدفع إلى التنافس الخيّر، ويقلل بل يقضي على الأمراض النفسية، ويسهم في تعديل السلوكيات الإنسانية، كما يمنع من التجاوزات البشرية الجائرة التي قد يلزم عنها الرفع لأقوام والحط لآخرين دون استناد إلى أساس مستقيم أو أصل رشيد.

(٥) من كلمة المستشار محمد المختار ولد امباله، أعمال المؤتمر العالمي للأخوة الإنسانية، أبوظبي (٣ - ٤ فبراير ٢٠١٩م)، صـ٣٦٢.